ترجمة

العراق والتوتر في العلاقات الامريكية-الايرانية(*)

للكاتب محسن ميلاني(**)

سميرة ابراهيم عبد الرحمن(***)

لا جرم في القول ان العراق يمثل نقطة مركزية لأي تنافسٍ استراتيجي بي ن إيران والولايات المتحدة. فمنذ اجتياح القوات الاميركية للعراق في العام ٢٠٠٣، سعت إيران سعياً لا هوادة فيه لفرض إرادتها على البلد، وتوسيع نفوذها في المنطقة . وعلى الرغم من انها لم تنجح نجاحاً كاملاً الا انها حصلت على عمقٍ استراتيجي في العراق وكانت وما انفكت تستخدم الدعم الذي تكسبه من شيعة العراق واكراده لتعطيل العمليات الاميركية المضادة لاجندتها . وحينما تتداخل المصالح الاميركية والإيرانية، فان الجمهورية الاسلامية كانت وما برحت قادرة على دعم الولايات المتحدة بسبلٍ تعزز من خلالها نفوذها. لا ريب في ان التناقض ا لظاهري الواضح في نشاطات إيران يجعل منها ما اصطلح على تسميته بـ "قوة مُفسدة" في العراق . فهي قوية قوة غير كافية لفرض اجندتها على العراق بيد انها مؤثرة كفاية لتعطيل العمليات الاميركية عبر وسائل لا متماثلة . وعلى مر الزمن، قوضّ سلوك إيران بوصفها قوة مُفسدة قدرة الولايات المتحدة على احتواء إيران.

لا تثريب في ان زحف إدارة بوش المدوي الى بغداد عام ٢٠٠٣ صعق وروع الجميع وصولاً الى طهران. ولعل شعور الجمهورية الاسلامية بانها محاصرة بالقوات الاميركية عبر حدودها الشرقية في افغانستان وعبر حدودها الغربية في العراق جعله ا تخشى بانها – ربما تكون الهدف التالي . ولكن بازاحة صدام حسين .. الشخص الذي الحق الكثير من الدمار بإيران أكثر من

*** المقال منشور على موقع مجلة الفورين افيرز (Foreign Affairs) على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) تحت باب (SWAPSHOT) في ٢٠ ايلول/ سبتمبر ٢٠١٠ وحمل عنوان:**

Meet Me in Baghdad
U.S.– Iranian Tension Flare in Iraq

**** محسن ميلانيMohsen M.Milani استاذ علم السياسة ورئيس قسم الحكومة والشؤون الدولية في جامعة ساوث فلوريدا في تامبا.**

***** الترجمة تمت بتصرف.(المترجمة)**

أي شخص اخر على مر قرون .. فان غزو الولايات المتحدة للعراق قد منح طهران هبة استراتيجية دونما ثمن: فرصة دعم حكومة شيعية صديقة بدلاً من صدام. عليه، قررت الجمهورية الاسلامية الرد على هذا الوضع باستراتجيجية ذات ثلاث شعب: إذ سعت الى تقوية ساعد الشيعة في العراق؛ وجعلت من احتلال العراق عسيراً ومكلفاً للولايات المتحدة قدر المستطاع دون مواجهة مباشرة مع القوات الاميركية؛ وطورت قدرة انتقامية داخل العراق لردع الولايات المتحدة من مهاجمة إيران.

وحينما حلت الولايات المتحدة الجيش العراقي فور غزوها العراق فانها قد فتحت الباب امام الشيعة، بضمنهم اولئك الذين يدعمون إيران، للانضمام للقوات الأمنية التي أُعيد تشكيلها وسمحت ايضاً للقوات الأمنية الإيرانية في تأسيس شبكتها داخل العراق . وفوق كل ذلك، كانت إيران الداعم الأهم للتنظيمين الشيعيين الأكبر في العراق : الدعوة والمجلس الاعلى الاسلامي . كما تشترك الجمهورية الاسلامية بعلاقات ممتازة مع الحزبين الكرديين الرئيسين والمؤسسة الدينية الشيعية في العراق. فلا تثريب في ان يضمن كل هذا تأثيراً لإيران داخل العراق الجديد.

وفي المرحلة المبكرة من الاحتلال عَبّر الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي صراحة عن رغبته بالتعاون مع الولايات المتحدة مثلما عمل البلدان معاً في افغانستان لكسر شوكة طالبان . الا ان واشنطن رفضت العرض، فما كان من إيران الا ان ردت على الامر بمثله . فراحت تطالب بسحب القوات الاميركية، وتتساءل عن مدى شرعية حكومة انتقالية تدعمها الولايات المتحدة الا وهي سلطة الائتلاف المؤقتة ؛ وتدعو الى تشكيل حكومة عراقية حقيقية. ومثلما كان الرئيس الاميركي جورج دبليو بوش يدعو الى الديمقراطية في العراق ، دفعت الجمهورية الاسلامية بقوة كبيرة لإجراء انتخابات وطنية هنالك. إذ ادرك حكام طهران، ان الانتخابات اذا ما أُجريت، فأنها ستوصل شيعة العراق الى السلطة.

لا بد من القول ان القادة الإيرانيين لم يكونوا واثقين تماماً بمصداقية كل من المجلس الأعلى للثورة الاسلامية وحزب الدعوة لأن كليهما كان يتعاون مع الولايات المتحدة؛ او بقدرتهما على تولي الحكم. لذا راحو يقون انفسهم خسارة رهانهم من خلال دعم جماعات شيعية اخرى .. لاسيما جيش المهدي الذي يقوده مقتدى الصدر رجل الدين العراقي الذي كان كثيراً ما ينتقد إيرا ن الا انه مستعد لمقاتلة القوات الإميركية . فعلى سبيل المثال، حينما عبرت واشنطن، في منتصف عام ٢٠٠٤، عن قلقها من ان المواجهات بين القوات الاميركية وجيش المهدي في جنوب العراق يمكن ان تؤجل الانتخابات المزمع إجراؤها في العام ٢٠٠٥، سارعت طهران الى ارسال وفد للضغط على الصدر لإنهاء الانتفاضة . اخيراً، وبحلول نهاية آب ٢٠٠٤، توسط آية الله العظمى علي السيستاني لوقف إطلاق النار . عليه، جرت الانتخابات كما هو مخطط لها . وان تحالفاً من الائتلاف الوطني العراقي

الموحد الذي يهيمن عليه الشيعة والحزبين الكرديين الرئيسين.. كانت لجم يعهم روابط ودية مع إيران .. فاز بالسيطرة على زمام الامور.

كان هذا نصراً كبيراً لإيران . بيد ان الوضع سرعان ما تغير . إذ انزلق العراق سريعاً الى حربٍ طائفية دموية بلغت ذروتها بتدمير القاعدة لمسجد الامام العسكري، الضريح الشيعي المقدس . وعلى الرغم من ان القاعدة في العراق سعت الى اضرام نار حرب بين الشيعة والسنة عبر العالم الاسلامي الا ان العنف لم ينتشر خارج العراق. وخشية ان تعقد حرب طائفية امر صعود الشيعة الى السلطة، دعت إيران الى الامتناع عن الانتقام من السنة. وتزامناً مع زيادة عدد القوات الاميركية التي اعقبت ذلك، بدأت الجهود لاحلال الاستقرار في العراق.

وعلى الرغم من ان إيران انضمت للمناقشات مع الولايات المتحدة في بغداد عام ٢٠٠٧ للتحدث بشأن الوضع الأمني في العراق، اتهم بعض المسؤولين العراقيين والجيش الاميركي إيران بتزويد بعض المليشيات بالاسلحة والدعم المالي .. تقدر بثلاثة ملايين دولار شهرياً في العام ٢٠٠٩. وتعتقد الولايات المتحدة ايضاً بان قوة القدس * جناح الحرس الثوري الإيراني مسؤولة عن العمليات الارهابية في الخارج. فقد عملت مع حزب الله الشيعي اللبناني لتدريب المليشيات العراقية داخل إيران وزودتها بعبوات ناسفة قادرة على اختراق الدروع مما ادى الى مقتل مئتي جندي اميركي في العراق منذ العام ٢٠٠٣. ومن نافل القول ان إيران رفضت هذه الادعاءات . بيد ان واقع الحال ينكر ما ذهبت اليه إيران. في الحقيقة، كان الدعم ينسجم تماماً مع استراتيجة إيران. لا غرو في انها تريد جاراً شيعياً مستقراً ولكنها تريد ايضاً امتلاك قدرات انتقامية ضد الولايات المتحدة وان تجعل من الاحتلال الاميركي للعراق امراً عسيراً تحمله.

وبحلول العام ٢٠٠٨، تحقق هدف إيران الاستراتيجي الأهم الا وهو قيام حكومة صديقة يسيطر عليها الشيعة في بغداد. من ثم راحت إيران تولي اهتم امها لاتفاقية وضع القوات التي ستحكم الانسحاب الاميركي من العراق . كانت مسودة الاتفاقية ذات نهاية مفتوحة بالنسبة لإيران . عليه، راح النظام الإيراني يقنع رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي بالمطالبة بشرطين : ان يكون كانون الأول/ديسمبرمن العام ٢٠١١ موعداً نهائياً لانسحاب الولايات المتحدة الكامل من العراق، وعلى وفق الاتفاق فانه "سوف لن تستخدم الاراضي والمياه والاجواء العراقية نقطة انطلاق او نقل للهجمات ضد بلدان اخرى."

* يقصد الكاتب فيلق القدس. (المترجمة)

مع هذه الحماية، هدأت مخاوف إيران بشأن هجوم اميركي . وما تزال النبرة السياسية التي يصرح بها الرئيس محمود احمدي نجاد تتسم بالمواجهة . إذ كانت النظرة السائدة في طهران ان الولايات المتحدة قد سقطت في مستنقعٍ في العراق وانها تحتاج إيران من اجل ضمان استقرار الوضع . ومن وجهة نظر إيران، باتت الولايا ت المتحدة رهينة لسيطرتها على العراق، وان القوات الاميركية أمست هدفاً لعمليات انتقامية محتملة يقوم بها الحرس الثوري الإيراني فيما لو تمت مهاجمة المنشآت النووية الإيرانية.

وتواصل إيران اعتقادها انها تستطيع مقاومة سياسة الاحتواء التي تمارسها الولايات المتحد ة في حال قامت ببناء مجالها من التأثير في العراق مثلما فعلت في هراة الافغانية . فلا ريب في ان النفوذ الهائل لإيران داخل الحكومة العراقية والروابط الاقتصادية المتنامية بين البلدين قد جعل من غير المرجح، على سبيل المثال، ان يؤيد العراق عقوبات تفرضها الامم المتح دة على البرنامج النووي الإيراني.

مما لا بد قوله ان العراق ثاني أكبر مستورد للبضائع غير النفطية من إيران . ففي العام ٢٠٠٣، بلغت الواردات غير النفطية للعراق من إيران ١٨٤مليون دولار، في حين وصل هذا الرقم بحلول العام ٢٠٠٨ الى سبعة مليارات دولار . ويتوقع ان يربـو على عشرة مليارات بحلول العام ٢٠١٢. كما يعتمد العراق بشكل واسع على واردات الطاقة من إيران . ففي العام ٢٠٠٩، استورد العراق طاقة بقيمة مليار دولار .. اربعون بالمئة منها كانت كهرباء وثلاثون بالمئة للمنتجات النفطية المكررة. كما انخرطت إيران في إعادة بناء البنية التحتية للطاقة في العراق. فعلى سبيل المثال، وقعت طهران في العام ٢٠٠٧ عقداً بقيمة ١٥٠ مليون دولار لبناء محطة لتوليد الطاقة بقوة ٣٠٠ ميغاواط في بغداد . ووافقت في العام ٢٠٠٨ على بناء خط للطاقة الكهربائية بقوة ٤٠٠ ميغاواط بين مدينة عبادان، مدينة مرفئية تقع جنوب غرب إيران، والهارثة في جنوب العراق. كما استثمرت إيران بقوة في البصرة وهي ميناء استراتيجي مهم وثاني أكبر مدينة في العراق . إذ تخطط إيران لتنمية منطقة تجارة حرة هنالك، وبناء خطوط انابيب للنفط الخام وإنتاج النفط بين المدينة وعبادان. كما توسعت علاقاتها التجارية مع كردستان العراق، فثمة ما يربو على مئة شركة إيرانية عاملة هنالك . ويصدر كردستان العراق حالياً الفائض من النفط الى إيران مقابل استيراد الطاقة الكهربائية الإيرانية.

لذا من العسير على العراق بمكان تحمل تبعات معاداة إيران، إذ ان لتنفيذ العراق للعقوبات المفروضة على إيران تداعياته المؤذية على عملية إعادة البناء الجارية في العراق . وحتى لو سعت بغداد . تحت الضغط الاميركي . لتنفيذ العقوبات فمن الارجح ان توقظ فحسب شبكات التهريب الهاجعة

التي نشأت بين إيران والعراق حينما كانت الامم المتحدة تفرض عقوبات مُعطلة على العراق للمدة منذ العام ١٩٩١ وحتى ٢٠٠٣. لا غرو في ان تلك الشبكة اصابت بالثراء ببساطة القائمين على إدارتها من الإيرانيين والعراقيين على حد سواء . فاذا ما كانت العقوبات التي تفرضها بعض الدول الاوروبية التي كانت تعكف على تزويد إيران بالكثير من المنتجات المتقدمة ت كنولوجياً لم تفلح في إقناع الجمهورية الاسلامية بتغير سياساتها النووية، فمن السذاجة بمكان الاعتقاد ان إنهاء تجارة العراق المحدودة ذات التكنولوجيا المتأخرة، مع إيران قد يدفع الاخيرة لتغيير نهجها.

من جانبها، ترى طهران ان الولايات المتحدة قوة غير صبورة. إذ وفقاً لوزير خارجية العراق، هوشيار زيباري فان احمدي نجاد قال له مؤخراً بان "الاميركان زرعوا شجرة في العراق، سقوها ماءً وشذبوها واعتنوا بها. ثم سأل نجاد زيباري لماذا يغادر اصدقاؤك الاميركان الأن قبل ان يجنوا ثمارها." في الحقيقة، وفي الوقت عينه الذي تستثمر فيه إيران بقوة في العراق بقصد القول ان الولايات المتحدة بدأت ترحل عن العراق .. الامر الذي جعل سفير الولايات المتحدة السابق لدى العراق ريان كروكر يندب الأمر بوصفه افتقاراً "للصبر الاستراتيجي".

ومن نافل القول، ان الانتخابات الوطنية العراقية التي جرت في اذار /مارس ٢٠١٠ قد عقدت الوضع في إيران. فبعد خمسة اشهرعلى إجراء الانتخابات*، اخفقت الاحزاب الرئيسة في تشكيل الحكومة. والامر الذي كدر خاطر إيران كثيراً ، هو فوز حزب القائمة العراقية الوطني، الذي يقوده اياد علاوي الشيعي العلماني والذي يتمتع بدعم من السنة، بمقاعد برلما نية أكثر من أي حزب تدعمه طهران. فإيران تنظر لعلاوي بعين الشك والريبة فهو ينتقد التدخل الإيراني في العراق وله علاقات وطيدة مع واشنطن والرياض.

وبغض الطرف، ستستمر إيران في ان تكون قوة يُحْسَب لها حساب في العراق على مدى سنوات قادمة. بيد ان الولايات المتحدة، مع صبر إستراتيجي او دونه، ستكون قوة أكبر بكثير هنالك . إذ لا يؤشر رحيل القوات الاميركية المقاتلة من العراق في ايلول ٢٠١٠ نهاية تدخل الولايات المتحدة فيه. فالاتفاقيات الأمنية بين العراق والولايات المتحدة قد وضعت اساساً لعلاقة وثيقة ومتعددة الوجوه لعقود قادمة. فضلاً عن ذلك، تكون الروابط السياسية والاقتصادية بين البلدين راسخة بحيث يبات من العسير على إيران تقويضها.

كما ان لإيران نقاط ضعف تحد من طموحاتها . فشيعة العراق منقسمون على انفسهم ايديولوجياً، واجتماعياً واقتصادياً، وينتقد بعضهم إيران . كما ان العودة للوطنية العراقية الجارية الآن

* وقت كتابة المقال في ٢٠ايلول/سبتمبر ٢٠١٠ .(المترجمة)

والتي تنظر بعين الشك والريبة تاريخياً للفرس والنزاعات الاقليمية طويلة الأمد بين العراق وإيران لا سيما على سيادة شط العرب، وهو ممر مائي مهم على امتداد حدودهما يمكن ان تثير من جديد العداوات القديمة. كما ان الانقسامات العميقة داخل النخبة الحاكمة لإيران التي طفت على السطح بعد فوز احمدي نجاد بالانتخابات الرئاسية ٢٠٠٩ المثيرة للجدل، والسخط المتنامي بين شريحة واسعة من سكان إيران من المرجح ان تعقد أي مغامرة سياسية في العراق.

وفوق كل هذا، لا يكون تصرف إيران بوصفها قوة مُفسدة بديلاً لسياسة خا رجية فاعلة وبناءة. فمن غير المرجح ان تكون إيران قادرة على ترسيخ مكاسبها الهشة في العراق (بل يمكن ان تخسر الكثير مما حققته) ما لم تتعاون مع الولايات المتحدة حول رؤية مشتركة لمستقبل العراق.